المحاضرة الثالثة: أثر الإسلام في الشعر العربي القديم

بعد أن وقفنا على القصيدة في العصر الجاهلي بين نزعتي الانتماء القبلي، ونزعة التمرد مع شعراء الصعاليك، وخلصنا إلى أنّ القصيدة تأسست في ذلك العصر، وتطورت عبر أزمان طويلة مجهولة وانتهت كاملة مستوية ذات تقاليد ومراحل لازمت الشعر عصورا، وأنّ هذا الشعر قد لاءم طبيعة الجاهليين وبداوتهم فاختصر كلّ ثقافتهم، وكان ديوان العرب الأوّل ومصدر معرفتهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون- كما قال ابن إسلام الجمحي-، وأمام هذه الأهمية والقيمة البالغة للشعر القديم سنحاول في هذه المحاضرة أن نؤكد تأكيدا متجددا على نقض الاعتقاد السائد- برغم محاولات كثير من الباحثين والدارسين دحضه- أنّ الشعر خبت جذوته، وكسدت سوقه بعد الإسلام، فقلَّ عدد الشعراء وتضاءل إنتاجهم، فهي فكرة غير صائبة، بل زعمٌ أبطلته كتب الأدب والتاريخ بإثباتها الدور الكبير الّذي نهض به الشعر في الخصومة بين المسلمين والمشركين، واستماع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى شعر الشعراء والمسلمين، وحثّهم على المضي فيه دفاعا عن الإسلام وهجوما على خصومه، وما كان للفتوح الإسلامية من أثر في إذكاء روح الشعر.

فلقد جاء الدين الجديد، وجاء معه القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يتح لأمة من الأمم كتاب مثله لا ديني ولا دنيوي من حيث البلاغة والتأثير في النفوس، وما أن أتم الله على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام حتّى مضى كثير منهم «ينظمون في هذا العصر لامع الأحداث، بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهديه الكريم، فالشعر لم يتوقف ولم يتخلف في هذا العصر، وهذا طبيعي لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية، وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم، فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه».[1]

وانطلاقا من هنا حري بنا أولا أن نتتبع موقف الإسلام من الشعر لأنّنا عندما نتحدث عن أثر الإسلام في الشعر القديم، فإنّنا نقف على أعتاب جملة من الإشكاليات المتداخلة حول طبيعة العلاقة الناشئة بين النّص الديني الجديد وبين النّص الفني الإبداعي الضارب بجذوره في القدم، وحول حدود هذه العلاقة ومراحلها، فيا ترى كيف كان موقف الدين الجديد من الشعر والشعراء؟ وما مدى تأثر الشعراء فيما بعد بمعاني الدين الجديد؟

1- موقف الإسلام من الشعر:

إن قضية أثر الإسلام في الشعر القديم قضية ترتبت على قضية أخرى وهي موقف الإسلام من الشعر عند الّذين قالوا أنّ الإسلام حارب الشعر وهاجمه، وهي قضية خطيرة لأن أصحابها يتحدثون عن آثار سلبية، ولا يتحدثون عن مدى تأثر لغة الشعر ومعانيه وصوره بالقرآن الكريم، فكيف للإسلام وقد جاء ليسمو بالروح والعاطفة، ويهذب القلب، ويوقظ الفكر أن يقف ضد فن من الفنون التي تسمو بالوجدان وتعيد صياغة الحياة وتبدع الكون من جديد؟

يتحدد موقف الإسلام من الشعر من خلال ما ورد في نص القرآن الكريم من آيات عرضت للشعر والشعراء، ولكن الواضح للعيان أنّ هذه الآيات القرآنية التي يعتمدها بعض الباحثين في إثبات شبهة إصغار العرب للشعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه جاءت في سياق تاريخي خاص، احتدم فيه الصراع بين المسلمين والمشركين في بداية البعثة المحمدية، فجاءت تنزيها للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم، ودفاعا عن الإسلام والمسلمين، فالقرآن الكريم إنّما هاجم شعراء المشركين الّذين يهجون الرسول صلى الله عليه وسلم ويثبطون دعوته، ولم يهاجم الشعر من حيث هو شعر، وإنّما هاجم شعرا بعينه كان يؤذي الله ورسوله، وهو نفسه الّذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير من أن يمتلئ شعرا»(1)، ومن هذه الآيات نذكر قوله تعالى:

«وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ(69) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ(70)»[1]، ويقول تعالى: «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ».[2] ويقول تعالى: «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ(224) أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ(225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ(226) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ(227)».[3]

ومن الواضح أنّ هذه الآيات التي قد تثير بعض اللبس عند الدارس فيظن أنّ القرآن قد عادى هذا الفن وقائليه، وهاجم الشعر والشعراء جاءت لتنزه النّص القرآني عن الكلام البشري، رافعة عنه الأوصاف التي ألحقتها العرب به، واضعة الحد الفاصل بين الشعر والنبوة، إذ بقراءة الآية الأخيرة كاملة مثلا، تنجلي الحقيقة ويتضح أنّ القرآن لا يحارب كلّ ألوان الشعر، بل إنّ المذموم منه هو ما قاله شعراء المشركين في مهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم، وهجاء الصحابة رضوان الله عليهم، بالإضافة إلى ما يوضحه الاستثناء في قوله تعالى: «إلا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات»، فالقرآن لم يحارب الشعر الّذي قاله شعراء المسلمين وانسجم مع تعاليم الدعوة، ومن ذلك يتضح ما قصدنا إليه من بيان أنّ الإسلام لم يصدر حكما بعينه على الشعر، ولم يتخذ منه موقفا خاصا، وإنّما نفى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون شاعرا من الشعراء، وأن تكون رسالته كرسالتهم «إن هو إلّا ذكر وقرآن مبين» ردا على الكفار الّذين كانوا يهدفون إلى إدخال القرآن الكريم- لبلاغته وقوة أخذه وتأثيره- في باب الشعر.

أمّا بعد ذلك فإنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعجب بالشعر، ويقول حين يسمع بعض روائعه: «إنّ من البيان لسحرا وإنّ من الشعر لحكما أو حكمة»[1] كما كان يحض حسان بن ثابت وغيره على نظمه ويثيبهم، ويكفي أن نذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عن كعب بن زهير، وخلع عليه بردته بعدما أنشده لاميته المشهورة، فالرسول -عليه السلام- اتخذ من الشعر سلاحا ماضيا ضد خصومه من مشركي قريش وأعداء رسالته، إذ كان يراه أشد عليهم من وقع الحسام، وكل ذلك معناه «أنّ الإسلام لم يثبط عن الشعر إلّا حيث وقف معارضا لدعوته، أمّا بعد ذلك فقد كان يرتضيه ويستحسنه»[2] كما قال شوقي ضيف وغيره من الباحثين.

2- أثر الإسلام في الشعر القديم (طبيعته ومراحله):

يتفرد عصر الإسلام والدولة الأموية من بين مراحل تاريخ الأمة العربية بأنه عصر تمت فيه أكبر نقلة حضارية في أوجز زمن، فخلال ما لا يزيد على قرن من الزمان تغيرت عقيدة العرب- في السنوات الأولى من ذلك القرن- وخرج العرب من بواديهم وقراهم حاملين إيمانهم الجديد ليستوطنوا بلادا تختلف عن بلادهم في الطبيعة ونظام المعيشة وتقاليد المجتمع والتراث الحضاري، فما جرى من أحداث غيّر المجتمع الإنساني القديم في سنوات قلائل، ولم يعد للنفس العربية فسحة من الوقت للتكيف مع تلك الأوضاع الجديدة، يقول عبد القادر قط: «والحق أنّ مرحلة الانتقال تلك كانت بالغة القصر إذا ما قيست إلى التحول الهائل الّذي طرأ على الحياة العربية بعد الفتوح الإسلامية، ويلاحظ الدارس أنّ الشعراء منذ السنوات الأولى للإسلام قد بدأوا **يتأثرون** تأثرا واضحا بالمعاني الدينية الجديدة وبالأسلوب القرآني ممّا يؤكد أنّ مواجهة الشاعر المخضرم للمجتمع الجديد كانت مواجهة سريعة فرضت عليه إمّا التكيف السريع كما سنرى عند

حسان بن ثابت أو الصمت التام كما تذكر الرّواية عن لبيد، أو المضي على طريق الشعر الجاهلي إلّا ما كان من تأثير يسير كالذي نراه عند الحطيئة». [1]

فعندما نتحدث عن **طبيعة التأثر** بالإسلام في الشعر العربي القديم، نجد أن بعض الشعراء أصبحوا يرون في القرآن الكريم منهلا جديدا يمكن الرجوع إليه لاستلهام المعاني الجديدة التي يمكنها أن تنتشل الشعر من حالة الجمود التي وصل إليها - على الأقل- على المستوى الفكري، وفي بعض الأحيان في مستواه الفني المتعلق بالأساس باللغة التي بدأت تتآكل مع مرور الزمن (الشيخوخة) بفعل الاستعمال المتكرر عند الشعراء، إذ «من يقرأ في شعر المخضرمين متصفحا ما نشر في كتب التاريخ والأدب يجد جمهور الشعراء يصدرون في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها وخالطت شغاف قلوبهم... يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكان عبد الله خاصة دائم الاستمداد من القرآن يستلهمه في هجائه للمشركين، وفي كلّ ما ينظم من أشعار على شاكلة قوله:

شهدتُ بأنّ وعد الله حق   وأنّ النار مثوى الكافرينا»[2]

فلا شك أنّ ما طرأ على الفكر العربي من نور العقيدة وثقافتها بدأ يجد سبيله إلى الشعر العربي، لذا على الدارس الذي يبحث عن مظاهر ذلك التأثر (التحول) الفكري والفني، وما أحدثه من تطور وتجديد في الشعر القديم أن يقف على مراحل هذا التأثر؛ فقد امتدت محاولات التحوير والإضافة في المستويين الفني والفكري للقصيدة القديمة لسنوات طويلة، وبخاصة إذا علمنا بأن انطلاقة هذه المحاولات تبدو متعثرة، إما بسبب قيمة الفن الشعري الجاهلي الذي رسم لنفسه هيكلا متأصلا فنيا وفكريا، واكتسب أهمية بالغة قبل الإسلام[3] حتى علقت بعض درره على أستار الكعبة، وإما لانشغال شعراء صدر الاسلام

عن الشعر بالدعوة والفتوحات، وإما لما أصاب النفس العربية بعامة من اضطراب وتوزع بين الماضي والحاضر، وبين الوطن القديم والمستقر الجديد، وبين التاريخ والعادات المألوفة وما تفرضه الهجرة من تحول في كل تلك القيم....

حيث أن الخطوة الأولى التي خطها شعراء المرحلة الإسلامية الأولى في مجال الإبداع، والتي أحس معها الدارسون بضعف المستوى الفني لذلك الشعر، لا تقوى على مجاراة القصيدة الجاهلية، وهذه الظاهرة كما قال الباحثون «أوضح ما تكون في شعر هؤلاء الشعراء الّذين اتصلوا اتصالا وثيقا ممتدا بالصراع بين المسلمين والمشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب».(1)

ويمكن أن نطلق على هذه المرحلة **مرحلة الاتصال المباشر أو التأثر غير المبدع؛** ذلك لأن شعراء هذه المرحلة «قد واجهوا منذ البداية عبء الاتصال المباشر بالقيم الجديدة وما تحمله من مظاهر التغير في الأخلاق والسلوك والقيم الاجتماعية والروحية، كما كان عليهم أن يشاركوا مشاركة مباشرة مستمرة في المعركة من جانبها الكلامي، ولم يكن من اليسير على شاعر قضى الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية كحسان بن ثابت مثلا أن يجد لنفسه أسلوبا جديدا من الشعر يُحسن التعبير عن القيم والقضايا الجديدة ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنية التي نمت وتطورت في ظل مجتمع مختلف في قيمه وقضاياه».(2)

ولكن رغم هذه الظروف التي فرضتها هذه المرحلة الانتقالية إلا أن الدارس يلاحظ أن الشعراء منذ السنوات الأولى للإسلام بدأوا يتأثرون تأثرا واضحا بالمعاني الدينية الجديدة وبالأسلوب القرآني، وتوجهوا إلى ألفاظه مضمنين إياها في قصائدهم لتكون فاتحة

للتحول الفني في شكل القصيدة العربية -على الأقل- على مستوى اللغة الشعرية، وخير مثال نسوقه لشاعر الدعوة المحمدية حسان بن ثابت الذي يقول: [1]

وكفـــــى المــــؤمنين قتـــــالَهم   وأثابهم في الأجر خير ثوابِ
من بعد ما قنطوا وفَّرج عــنهم   تنزيل نصُ مليكنــا الوهــابِ
وأقر عـــينُ محمــد وصـــحابه   وأذلَّ كـــلّ مكـــذب مرتـــابِ

الأبيات فيها تأثر كبير بلغة ومعاني الدين الجديد، وكأنها اتشحت بأضواء الإسلام وهديه الكريم، لكن الشاعر يميل إلى البساطة في التعبير من خلال نقله لأحداث الغزو الذي كلل بالفتح ورفع راية الإسلام، وكذا الثواب الذي ناله الفاتحون من الله تعالى على ما قدموه من تضحيات واستشهاد، حتى أننا نحس أن أسلوبه يقترب أكثر من النظم منه إلى الشعر، ومرد ذلك التواضع في الأداء الفني في هذه الأبيات أن الشاعر كغيره من شعراء تلك المرحلة الأولى لم يتمكن بعد من معاني القرآن الكريم، ذلك أننا عندما نقف على قصائد أخرى من شعره الذي تمرس فيه على المعاني الإسلامية نحسه أكثر توليدا للمعاني وابتكارا لها، يقول عبد القادر قط عن ضعف المستوى الفني لشعر هذه المرحلة: «والحق أنّنا لو قارنا بين شعر هذه المرحلة والشعر الجاهلي لأدركنا دون عناء أنّ هناك بونا شاسعا بين الشعرين من حيث الأصالة والمستوى، وأنّ الشعر في صدر الإسلام قد فقد- في معظمه وبخاصة الشعر السياسي- ما في الشعر الجاهلي من خيال حي واقتدار لغوي والتصاق بالطبيعة والمزاوجة بينها وبين مشاعر الإنسان، وأنه في كثير من وجوهه قد أصبح أقرب إلى النظم منه إلى الإبداع».[2]

إذن لم تبلغ التجربة الشعرية في هذه المرحلة مرتبة النضج، التي تستلزم فترة طويلة تمر عبر مراحل فهم لتعاليم الدين الجديد، وفقه لمضامينه واستيعاب لأحكامه، فكان

لابد كما قال عبد القادر قط من أن تمضي سنين أخرى في ظل الإسلام حتّى ينشأ جيل جديد تربى في تلك البيئة الحضارية الجديدة بعد أن تبلورت سماتها واستقرت قيمها وتجاوزت مرحلة الانتقال إلى مرحلة الأصالة، وهذه هي المرحلة الثانية وتمثل **مرحلة التأثر الإبداعي والاتصال غير المباشر.**

والشعراء في هذه المرحلة لم يكونوا على اتصال مباشر بالدعوة المحمدية كشعراء المرحلة السابقة، كما أنّهم كانوا أكثر وعيا بمبادئ الدين الجديد وفهم له، وعلى ذلك نجد المعاني الدينية تغلغلت إلى نصوصهم الشعرية في نوع من الهدوء والدقة في الاستعمال، فلم يكونوا تحت ضغوطات الاتصال المباشر مع المشركين لأن الأمور هدأت نسبيا، والدولة الإسلامية استقام عودها وأصبحت قوية، يضاف إلى ذلك أنّ بعض الشعراء كانوا بعيدين على مواطن الغزو والصراع كما هو الحال بالنسبة لشعراء البادية، يقول عبد القادر قط: «أمّا الشعراء الّذين كانوا أقل "انغماسا" في تلك الحرب الكلامية فإنّهم لم يشعروا كثيرا بهذه الأزمة الفنية، ومضوا يقولون الشعر كما كانوا يقولونه في الجاهلية على شيء من الاختلاف اليسير، كان لابد أن يكون وهم يعيشون في ذلك المجتمع الجديد». [1]

إذن يمكن أن نسمي هذه المرحلة بمرحلة التأثر بالنص القرآني الإبداعي، ذلك أن الشعراء لم يكونوا على اتصال مباشر بالدعوة المحمدية من ناحية كما أن شعراء هذه الفترة كانوا أكثر وعيا بمبادئ الدين الجديد وفهم له؛ وهم الذين فقهوه مع ما توافر لديهم من آليات تفسير النص الديني عند المفسرين من ناحية أخرى.

أصبح الشاعر في هذه المرحلة أكثر عمقا في معانيه، لأنه استطاع أن يقيم مزاوجة بين الأصول الشعرية الجاهلية بأساليبها الراقية و بين المعاني الإسلامية الجديدة مثال ذلك قول **الفرزدق**: [2]

فالأرض لله ولاَّها خليفته وصاحبُ الله فيها غير مغلوب

وقوله: [1]

خيارُ الله للإسلام! إنا إليك نشدُّ اتساعَ الصدورِ

وقوله: [2]

أرى الله قد أعطى ابن عاتِكةَ الذي له الدين أمسى مستقيم السَوَالفُ

تُقى الله والحُكم الذي ليـس مثلــهُ ورأفةُ مهديٍّ على الناس عِاطفُ

وقوله: [3]

ورْثَتَ أباكَ الملك تجري بسمته كذلك خُوط النبع ينبت في الأصلِ

كدواد إذْ ولـــَّى سليمـــان بعـــده خلافَتهُ نحلاً من الله ذي الفضـــلِ

من خلال مضمون هذه الأبيات يمكن لنا القول أن الشعراء أصبحوا يتعاملون مع المعنى بوعي أكثر من ذي قبل؛ ذلك أن أبيات الفرزدق ترد منسجمة لفظا ومعني، وفيها يحاول الشاعر أن يحشد الأدلة الدينية (الأرض لله ولاها خليفته) لأحقية ممدوحه في الخلافة لأنه -في نظره- مصطفى من الله للقيام بهذه المهمة التي أورثه إياها الله من والده، كما ورّث الحكم من داوود إلى سليمان عليهما السلام.

انتقل التأثر بالقرآن الكريم لفظا ومعنى إلى جميع الأغراض الشعرية في هذه المرحلة؛ مدحا وغزلا، وهجاء، ورثاء، إلى غير ذلك، فطبيعي «أن يؤثر الإسلام في موضوعات الشعر الأموي، وهو تأثيرا يقوى ويضعف حسب نفسية الشعراء، إذ كان بينهم من تعمَّقه الإسلام ومن لم يتغلغل إلى أعماقه. على أنهم جميعا كانوا يستظلون بظلاله، وكان من حولهم الوعاظ والنسّاك يذيعون في مختلف الأجواء عبير وعظهم ونُسكهم...، وترامت من هذا المواعظ ومن القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال

الصحابة الأولين أشعة كثيرة نفذت إلى نفوس الشعراء وانعكست في أشعارهم على اختلاف موضوعاتهم»[1]. وخير شاهد هذه الأبيات التي يهجو فيها الفرزدق إبليس حيث يقول:[2]

أطعتُك يا إبليسُ سبعينَ حجّــةَ	فلما انتهى شيبي وتـــمَّ تَمَـــامِي
فررتُ إلى ربي وأيقنتُ أنَّنـــي	مُلاقٍ لأيام المنـــون حِمـــامِي
ولما دنًّا رأسُ التي كنتَ خائف	وكنت أرى فيهـــا لقَـــاءَ لِـــزَامِ
حلفتُ على نفسي لأجتهد منهـــا	على حالها من صحةٍ وســقامِ
ألا طَال ما قد بتّ يوضع ناقتي	أبو الجنِّ إبليسُ بغيـــر خُطَـــامِ
يَظلُّ يُمنينـــي علـــى الرَّحـــلِ	يكون ورائـــي مـــرَّة وأمـــامي
يُبشرني أن لن أمـــوتَ وأنـــه	سيدخلني فـــي جنـــةٍ وســـلامِ

حيث تبدو الثقافة الإسلامية وقد تمكنت من الفرزدق وحملته إلى طرق أبواب الزهد إخلاص الإيمان لله. فالشاعر يتحدث عن نهاية الإنسان المحتومة التي يجب أن يتهيأ لها الإنسان بالمجاهدة، والعبادة لأجل الفوز بالنعيم، مبديا ندمه على ما أضاع حينما كان غارقا في المعاصي مغترا بزخارف الدنيا ومتاعها.

كما أصيب الغزل بتأثير الإسلام من براءة وطهر وصفاء ونقاء عند شعراء نجدْ وبوادي الحجاز وعند فقهار المدينة ومكة، مما هيأ لظهور الغزل العذري بل لشيوعه، يقول **جميل**[3]**:**

إلى الله أشكو لا إلى الناس حُبَّها	ولا بد من شكوى حبيب يُرَوَّعُ
ألا تتقـــين الله فـــيمن قتلتـــه	فأمسى إليكم خاشعا يتضـــرّعُ
فيا ربِّ حبِّبْنِي إليها وأعطنـــي الـ	مودَّة منها أنت تعطي وتمنـــعُ

ومع تلاحق الحقب التاريخية تحول التأثر بمعاني القرآن إلى ثقافة شعرية، ومنهج جديد في مسار القصيدة العربية، فأصبحت جل المعاني العربية تحمل الصبغة الدينية، بل صار الدين مرجعا ورافدا مهما يتزود به الشعراء، على غرار شعراء العصر العباسي، من ذلك ما نجده عند **أبي تمام** الذي نظم ملحمة شعرية ذات مضمون ديني يمدح فيها المعتصم بالله، مبتكرا معاني جديدة من وحي الثقافة الإسلامية، يقول: [1]

بسنَّةِ السَّيفِ والخطيِّ مــن دمــه   لا سنَّةِ الدينِ والإسلام مختضَبِ
لقد تركت أميــر المــؤمنين بهــا   للنار يوما ذليل الصخر والخشبِ
لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنتْ   له المَنِيَّةُ بين السُّــمرِ والقُضُــبِ
تــدبيرُ معتصــمٍ بــالله مُنــتقمٌ   لله، مُرتقِــبٌ فــي الله مُرتغــبِ